اهـــوت عليه فضمها والجسم محلول العرى :

* * *

– اماه ! قد حال الهنا وجرى الذي ما قـدرا
اماه ! مالي لا ارى ما كنت اسمع او ارى !
اماه ! انى لا ارى صبح الحقيقة مسفرا
اماه ! انى لم اجـد جو الاماني مقـمرا
اين التقـدم في الخطى اين الرقى الى الذرى
اين العـلوم حياتنا اين المساعي ياترى ؟ !
اين الحماسة واهلهـا أم اين آساد الشرى . . !
اماه اخشى أن سقوا كأس المنون مخدرا
– ولداه كلا لم تمت تلك النفوس من الورى
لكنهم الهـاهـو عن نهجهم ما قد ترى
كل غـدا بفريسة متشاغلاً مستأثرا
فاذا اردت لنفسك الـ ... عيش العزيز الاجدرا
(فكر لنفسك) يا بني ! ان الفتى من فكرا

فاضل الصيدلي

الامل المحطم

وكان الاحتلال البريطاني العسكري ، كما تعلم ، فاصبح الناس – في بغداد – وامامهم سفر من اسفار الحياة جديد يقرأونه هنا سيارات تروح وتغدو فى الشارع العام الكبير الوحيد الذي فتحه الجيش العثماني . وهنالك مدرعات تحمل المدافع ، وفي الجو من الطيارات أسراب ، وهؤلاء ضباط صهب من الانكليز لم يكن لنا عهد بهم ، يمرون بنا صباحاً ومساءاً متكبرين متعاظمين. واولئك جنود من الانكليز والهنود يرتدون احسن الثياب ويحملون خير السلاح والمؤنة وعدد الحرب .

ثم جاء هذا القائد الاكبر مود يمنح العامة والخاصة الحرية ، ويقول كلمته المعروفة « اننا جئنا محررين لافاتحين » . واقبل الهاربون من الجيش الممزق على أهليهم وقد سلموا من القتل كما سلموا من الاسر . وظهرت في الاسواق ودور الحكومة ودور التجارة النقود الهندية اللماعة البيضاء واوراقها ذوات الخمس ربيات والعشر والمائة والالف ومايزيد ، التي راح صغار النفوس يبذلون عزتهم وكرامتهم الانسانية فى سبيل الفوز بها فاختفت وتلاشت الاوراق النقدية القديمة التى لم تكن لها من قيمة والفلوس النحاسية والدراهم المقعرة الأثرية .

وشمل التغير والتبدل كل ظاهرة من ظاهرات الاجتماع . فما مرت سنة الا واصبحت بغداد فى عهد لايشابه عهدها الذي مضى . وكان علي غالب – وهو فتي فى الـ ١٨ من العمر حلو الشمائل عصبى المزاج من اسرة

معروفة بنزعتها الدينية وميل ابنائها الى طلب العلم — فى دهش مما رأى من عناصر العظمة عند البريطانيين. وقد اضحى على اتصال بانباء العالم . فعرف شيئا عن الثورة العربية في الحجاز . وقرأ مما أتيح له ان يقرأ من الكتب ، كتاب « ثورة العرب » الذي جاء به الدعاة بغداد أثر احتلالها . فتكونت لديه فكرة خاصة تتجه الى القومية العربية .

ولاعلمك بعد ان هذا الفتى كان قد شب على الشعور بكرامة العرب كما شب على الرضوخ لتعاليم الاسلام . ولاعلمك انه كان يقدس عظماء العرب والاسلام الفاتحين . فلما ان قرأ كتاب ثورة العرب كاد يجن حماسة فيها . الا لقد جعلها فتحاً جديداً فى التاريخ العربي الاسلامي . وجعل القائم بها فى صف العظماء الذين كان يقدس . ولاعلمك انه قرأ تلك المناشير الخضراء التى اذيعت اذ ذاك، ففهم منها ان ثورة الحجاز تؤيدها نصوص من القرآن. وفهم منها انها كانت لازمة لاقامة الدولة العربية الاسلامية الجديدة.

كان الفتى نهب الحماسة ، مكباً على الاعداد الكثيرة من جريدة القبلة التي وصلت الى ابيه يقرأها ، وعلى هذا الكتاب : « ثورة العرب » يقرأه كذلك ويكاد يلتهمه التهاما ثم يعيد قراءته ثم يعيد . وكانت انباء القضية العربية عنده بمثابة الغذاء .

ولم تكن في المدينة مدرسة يجدر به دخولها . كان فيها مدرسة للهندسة ومدرسة للمعلمين . دخل الاولى ثم تركها ثم انتمى الي الثانية . ولكنه لم يكن مستطيعاً الانقطاع اليها كل الانقطاع . كان كتاب « الثورة العربية » على رأيه ارجح من كتب التربية والتعليم واعظم قيمة وفائدة.

وكان يتمنى ان يجد السبيل الى الحجاز امامه معبدة ممهدة فيمضي على عجل الى حيث يعمل مع العاملين على اعلاء شأن « القضية ... » ولكنه

كان اسير محيطه واسير بيته وابيه . فلم يكن ليستطيع ان يبرح بغداد . ولم يكن ليستطيع ان يخالف امراً لابيه الذي كان ينظر الي ثورة العرب نظرة كلها ريبة وشك .

وخرج من المدرسة حاملاً شهادتها العادية بعد بضعة اشهر . فاضحى معلماً . وكانت دروسه التى انشأ يلقيها واسطة لبث الدعاية للقضية .

لقد اختار من مبادئ علوم المدرسة — وهى ابتدائية — التاريخ والجغرافية . وكان يخرج عن منهاج المعارف حين القاء دروسهما . كان — مثلاً — يخلط التحدث الى الطلبة عن المجد العربي الاسلامي الماضي بالتحدث عن المجد العربي الاسلامى الذي كان يظن انه سيتلو الثورة .

وظل على ذلك بضعة اشهر . ثم انتهى الى نتيجة لم ترضه . كان مخطئا كان يحسب انه سيخلق التلامذة على غراره ، فاذا به يراهم لاهين متشاغلين عنه ، يحسبونه يقص عليهم قصصا يفكههم بها و يقتل اوقاتهم . واذا جاء يوم الامتحان لم ينجح معظمهم في دروسه . فياخيبة الامل!

كانت النتيجة قاسية فهم منها انه كان مغرورا يتملكه الوهم . فكأنه لم يكن يعلم ان التلامذة أطفال ، بعيدون عن تصور ماكان يتصور ؛ بعيدون عن الطموح الى ماكان يطمح اليه . وكان عليه ان يقتصد فى دعايته فلا يذهب فيها الى مدى بعيد فيخسر المساكين الدروس .

وكان بعد ذلك قلقاً لايستقر على حال . سرعان ما أساء الظن بالحلفاء الذين وعدوا العرب بما وعدوا . كان يتشاءم وهو يرى الحكومة العسكرية مسرفة في الحكم على غير قاعدة ولاقانون . ماكان يحسب ان العقبى ستكون كما كان يرى . وكان — فى بغداد — السجنى المرهقون . وكان فتانا أهون عليه ان يساق الى المجزرة من ان يشهد هؤلاء السجنى المرهقين يكسرون

الصخر على قوارع الطرق وكان يطرق سمعه بين حين وآخر « أن جماعة من المواطنين يؤلفون جمعية سريه لبث الدعاية العربية ». فكان يتمنى ان يعرف واحداً منهم يسلكه فيها .

وكان بعد ان خيب التلامذة أمله واطاروا من رأسه حلمه الزاهي الجميل يعزم على الاستقالة من المدرسة ولكنه كان يعرف انه سيظل عاطلاً . والعطالة موت .

وكان معتزلا الناس الا اصحابه وهم لايزيدون على ثلاثة ولعل اعتزاله هذا هو الذي ابعده عن الاهتداء الى الجمعية السرية البغدادية . وكان يتضاءل وهو يشعر بانه غريب هنا مادام لايعرف احداً ولا يستطيع ان يشارك المواطنين الغيارى في خدمة « القضية » . ثم كان من امره أن استقال .

وكانت استقالته دليلا على يأس وعلى تشاؤم شديد . ثم بدأ بحياته التي تكهن بها ، حياة العطالة .

وقد كتب الى صديق من اصدقائه الثلاثة وكان مسافراً الى الحلة اذ ذاك هذا الكتاب :

« ١٥ كانون الثاني ...

جاءني امس اخونا عبد القادر يكلمني في مسائلنا الوطنية ويشكو ... ويقول ان احد الشبان كان يتكلم في ناد داعياً الناس الى الاكباب على المعارف والعلوم ونشرها وفتح المدارس الاهلية فهزأت به (اي بعبدالقادر) وقلت له ان المدارس لاتفيدنا الان مادمنا في هذه الحركة من الذلة ».

فاما ان المدارس لاتفيد فهذا خطأ . ولكنه كان يائساً يحس بالخيبة بعد ان استقال من المدرسة وانصرف عنها . وكأن صاحبه عبدالقادر لم يقل له الا « ان الوطن محتاج الى تلك المدرسة نفسها وانها ستكون قوام حياته

الاستقلالية » فاثاره ، فهزأ به اذ اجابه « ان المدارس لاتفيدنا ... » وربما كان محقاً لان البلاد كان ينبغي لها ان تجاهد في سبيل آخر غير طريق المدارس ومعارفها .

وكان ابوه يعاتبه ويؤنبه لانه رفس برجليه الاثنتين مهنة التعليم الشريفة. والحق أنه كان عليه أن يصبر عليها حتى ترتفع عنه الحاجة اليه .

وكان تأنيب ابيه يؤلمه ، فيتمنى ان يعود الى التدريس . ولكن كان يمنعه ويصده حياه وترفع عن الرجوع الى اولي أمر المعارف .

الا لقد فهم بعد ان انبه ابوه وعاتبه انه قد كبر ، فاضحى شخصاً آخر غير ذلك الطفل المحبوب الذي كانه . فهم ان الآباء بعد ان يكبر ابناؤهم يعز عليهم اعالتهم ، وكل مايرجوه احدهم هو ان يرى ولده ذا مهنة او صناعة يتكسب بها ويجمع المال . بيد انه لم يكن ليستطيع ان يعمل عملاً . وكلما كان يتصور دخوله على مدير المعارف وبيده « عريضة يسترحم فيها اعادته الى التعليم » كان يقول : « لا . لا الموت خير ! » وقد اشتد عزمه على الخروج من بغداد والذهاب الى الحجاز . وخطر له كذلك انه من الواجب عليه العودة الى طلب العلوم .

وانظر اليه كيف كان يعيش تلك الايام ؟

كتب الى صاحبه الشاخص الى الحلة في ١٨ كانون الثاني: «انني مازلت لا أعرف لي صديقاً غير عبد القادر والحسين ولكنني صرت لا اجتمع بهما الا قليلاً . وقد لقيت عبد القادر يوم الاحد الماضي في مطعم (بغداد) فما الفينا مجال الحديث امامنا واسعاً . وكان يطالع جريدة اذ كنت افكر شاعراً بالسأم والملل وخسارة العمر وضياع الوقت الثمين بين أكل وشرب ونوم . ولا ادري كيف كنت اشبه هذه الحياة بحياة الدابة التي تعيش بين الرحى والمربط

والمعلف . فان هذا التشبيه لا يخلو من الخطأ . لان الدابة تدير الرحى فتنفع الناس فائدة عظيمة اما نحن فلا ننفع ولا نفيد . »

وكتب اليه في ٢٠ كانون الثاني :

« لم اغادر البيت الا عصراً . ولم أعمل في البيت عملاً نافعا مفيداً . كنت اريد ان اكتب رسالة فما كتبت ، وان اطالع فما طالعت ، وهكذا ضاع قسط من الوقت ثمين كما تضيع اوقاتي كلها سدى هذه الايام .

ذهبت الى مطعم بغداد فوجدت عبد القادر جالساً ينتظرني هنالك . ثم غادرنا المحل . ولم يكن في حوارنا وحديثنا مايجدر بي نقله اليك . ولم تكن لنا وجهة معلومة معينة فنسعى اليها في شيء من الرغبة ... بل ذهبنا — مكرهين — الى جسر مود فالصالحية فقهوة (...) وكانت خلواً من الناس . وكنت افضي الى صاحبي بما أنا فيه من حيرة ويأس ، ولم يكن ليوافقني — كل الموافقة — في اعتزامي الخروج من بغداد ».

وكتب اليه في ٢٩ كانون الثاني ...

« لقد خرجت وعبد القادر الساعة الواحدة بعد الظهر فذهبنا الى مطعم بغداد ، المحل الوحيد الذي صرنا نختلف اليه . واذ جلسنا نشرب الشاي انهمكت في التفكير وانهمك في مطالعة جريدة سياسية مصرية . وكان جو المطعم مفعماً برائحة الطعام والقتر ، والمقاعد خالية ، وكل شيء يدعو الى السأم والملل . وكان تفكيري منحصراً بهذه الايام التي اقضيها وهي خلو من اللذة والسرور . ولم اطق صبراً فدعوت صاحبي الى الخروج والذهاب ولكن الى أين ؟...

ذهبنا الى الضاحية الجنوبية الساحلية ، وحاولنا دخول احدى حدائقها فرأينا كل ما فيها من شجر قد تعرى من الورق فكان المنظر عبوساً

يزيدنا انقباضاً وسأماً . فلم ندخل . ثم ذهبنا الى آخر قهوة على الساحل واذا بجوها فاسد الهواء . فلم نطق صبراً فرجعنا ، ولكن الى اين كنا نريد الذهاب لم نكن نعلم ... »

وفي هذه الرسائل الكفاية . فانها لتريك يأسه واضحاً وتريك أنه كان همه الوحيد ان يعمل عملا مفيداً نافعاً للبلاد .

وقضى الامر فقد حمله ابوه على العودة الى التدريس . وما كان يخالف لابيه امراً ، فذهب الى دائرة المعارف فلم يرض المدير ان يعيده الى مدرسته الاولى . فآب الى ابيه وهو شديد اليأس والحنق ، فقال له :

« لم يقبلوني . ألم اقل لك اولا ان تركهم اولى ؟ »

وكانت هذه الحادثة تزيد في عزمه على مغادرة بغداد .

ومل صاحبيه ، لانهما كانا اعجز الناس عن ان يخرجاه من ظلمته الى نور . وآخر دواء لحاله ، ظفر به ، هو المكث في البيت والاعتماد على امه بدلا عن ابيه . وكانت أمه لاتشارك الاب في تأنيبه وحمله على العودة الى مهنته الاولى واتخاذ مهنة جديدة غيرها . وقد كف اخيراً عن طلب ماكان يحتاج اليه من مال من ابيه . مكتفياً بما كانت تمنحه اياه امه بين حين وحين .

وماذا حدث له بعد ؟

حدث بعد ذلك انه خرج ذات يوم من بيته — خلافا لعادته — يتنزه . وكان محتاجاً الى التنزه لانه نحل وضعف واشرف على المرض ، فمر به جنود سكارى فركله واحد منهم ، فسقط على الارض وكاد يغمى عليه .

قال : « ابلغنا هذه الدركة الهاوية من الذل ؟ كلا ، حرام علي ان اتنسم نسائم العراق بعد اليوم ولأهجرن بغداد كما هجر الاندلس ابناؤها عقيب ان فتحها الافرنج وسواء أذهبت الى الحجاز ام الى مملكة اخرى فان

ارض الله الواسعة موئل لي ولامثالي ... »

وكان ابوه يعرف عزمه هذا . فمنعه ، ولكن هيهات ! فقد حال[1] الفتى . كان قطعة من النار المضطرمة . وظهر لابيه من اخلاقه ما لم يكن يتوقع ويؤمل . وكان ينصحه فلا يجيبه الا بالصمت ، صمت الفولاذ الذي لا يلين .

وكانت امه يحزنها ان تفارقه . فكان يقول لها :

« ان حياتي ههنا — يا اماه — ضرب من الموت . وما هي الفائدة من بقائي عاطلا اثقل كاهل ابي بنفقاتي . وانه وان كان لا ينفق علي الآن ، لا يزال يطعمني . وهذا الطعام الذي آكل في بيته نار تدخل جوفي . وخير لي ان اكون حراً في بلاد الله النائية ، من ان اكون مقيداً في موطني يقيدني هذا البيت ، ويقيدني ما يقيد وطني كذلك . ثم انني محتاج الى العلم فهذه الشهادة التي لدي عادية لا خير فيها . وهل من مدرسة جامعة في العالم تقبل شهادة خريج مدرسة المعلمين مدتها بضعة اشهر ؟ ... »

وكان الحوار بينهما يتكرر كل يوم .

وكانت حاجته الى المال في سفره عقدة العقد التي اعياه حلها . بيد ان امه لما رأته مصراً استسلمت كما يستسلم احدنا الى قضاء وقدر . واضحت هي التي تحل عقدته . وبعد لأي جمعت له المبلغ الذي اراد ...

وكان قبيل السفر بأيام قليلة يتنكر امام ابيه اعتزامه . ويبالغ في احترامه واطاعته . وكانت امه محزونة لا تخلو بنفسها الا ويغلبها فيتملكها البكاء ، وكان الفتى نفسه محزوناً يأسف لاضطراره الى مخالفة ابيه . ويأسف لمفارقته موطنه العزيز المقرن باصفاده . كان يتنازعه عاملان : عامل حب الموطن

(١) حال : تغير

والاهل الذي يدعوه الى التريث والبقاء ، وعامل الرغبة في السفر الى حيث يلاقي الشمس ، حيث يكون حراً طليقاً يطلب العلم ويعمل في سبيل القضية العربية . وقد غلبه العامل الثاني . فسافر ، ولا اريد ان اطيل .

أ كان يطيق الصبر على هواننا وذلتنا حر .

* * *

يقول (فرتر) في رسالته الأولى : « لشد ما ابهج نفسي واثلج فؤادي انني سافرت » . وكذلك كان يقول غالب صبيحة اليوم الثاني من سفره . واقبل على سجل مذكرات له يسجل فيه ما كان يرى في الباخرة وفي المدن الصغيرة الساحلية التي كان يمر بها وما كان يأكل ويشرب وكيف كان يقضي ايامه تلك . ولا يهمنا ان ننقل الى القارئ شيئاً مما كان يكتب اذ ذاك .

وحل البصرة بعد ثمانية ايام . فسرق اللصوص دراهمه وبعض ثيابه ومتاعه ، الليلة الاولى التي حل فيها احد (خانات) العشار .

وانت قد تكون مستغنياً عن معرفة تفاصيل الحادثة ، حادثة السرقة وماذا لقي غالب من بعدها من اذى وعناء ؛ ولكنني اشير اليها لانها غيرت وجهة سفره وصرفته عن غايته التي هاجر من اجلها . فقد بقي محروباً اكثر من نصف شهر . وانف اول الامر ان يستغيث بابيه فيطلب منه دراهم يستعين بها في اتمام السفر ، او اصلاح حاله ، ولم يكن ليجرأ ان يرسل اليه كتاباً لانه اغضبه ، اذ سافر وهو غير راض . وقد اقرضه بعض كرام المواطنين شيئاً من المال انفقه ، ثم اقرضه احدهم (١٠٠) ربية ، على ان يؤديها اليه بعد شهر واحد . وكان يحاول ان يعمل عملا في المدينة ؛ ولكن كان من الصعب على غريب مثله ان يهتدي الى عمل شريف ، وكان يستقرض المال وهو